تجديد الدين في ضوء السنة

بقلم أ. د. يوسف القرضاوي

مدير مركز بحوث السنة والسيرة

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية

جامعة قطـر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة

العدد الثاني - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها »(١) .

ذكره أبو داود أول كتاب الملاحم : باب ما يذكر في قرن المائة(٢) .

سـند الحـديث :

قال : حدثنا سليمان بن داود المهري : أخبرنا ابن وهب : اخبرني سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة ، عن أبي هريرة - فيما أعلم - عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يبعث . . . الحديث» .

قال أبو داود : رواه عبد الرحمن بن شريح الاسكندراني ، لم يَجُزْ به شراحيل . أي أوقفه عليه .

قال المنذري في مختصر السنن : (رقم ٤١٢٣) :

وعبد الرحمن بن شريح الاسكندراني ، ثقة ، اتفق البخاري ومسلم على الاحتجـاج بحـديثه . وقد عضله(٣) . يعني : اسقط راويين من سنده : أبا علقمة وأبا هريرة . فالحديث المعضل هو الذي سقط من إسناده راويان على التوالي .

وقول أبي داود هذا لا يعلل الحديث . لأن عبد الرحمن إذا كان قد عضله ، فإن سعيد بن أبي أيوب قد وصله وأسنده ، وهي زيادة من ثقة فتقبل ، كما هو مقرر في أصول الحديث .

وسند الحديث صحيح ، رجاله ثقات ، رجال مسلم ، ولذا صححه غير واحد ، ورمز السيوطي لصحته في «الجامع الصغير» واقره عليه شارحه العلامة المناوي(٤) ، وذكر أن الحاكم صححه(٥) ، وقال : قال الزين العراقي وغيره : سنده صحيح . وذكره الشيخ الالباني في سلسلة أحاديثه الصحيحة (رقم ٥٥٩)(٦) .

كلمة عن موضوع الحديث :

هذا الحديث الشريف يتكون من جملة خبرية واحدة ، تتضمن نبأً من أنباء الغيب ، أخبر به من لا ينطق عن الهوى . وهو لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به ، كما قال تعالى : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد . إلا من ارتضى من رسول . . .» . (سورة الجن : ٢٧ ، ٢٨) .

وقد رواه أبو داود في كتاب «الملاحم» من سننه . والملاحم جمع ملحمة ، ويراد بها : المعارك التي تقع في المستقبل بين المسلمين واعدائهم ، مأخوذة من التحام الجيشين المتقابلين ، مثل ما نبأ به - ﷺ - من قتال المسلمين للترك والروم واليهود وغيرهم .

وقد تحقق بعض ما أخبر به ﷺ ، ولازال البعض في ضمير الغيب . ونحن نوقن أنه واقع لا محالة في حينه الذي قدره الله . فما كَذَب محمد - ﷺ - يوما ولا كُذِب .

وموضوع الملاحم يذكر عادة مع موضوعين آخرين هما : الفتن واشراط الساعة ، وقد تضم هذه كلها ، وقد يفرد بعضها عن بعض . وكلها تتحدث عن المستقبل ، وما يجري الله فيه من احداث .

والحقيقة أن هذه الموضوعات : الفتن والملاحم واشراط الساعة من الأشياء التي يجب على أهل البصيرة من العلماء أن يوسعوها بحثا ، ولا يدعوها للمتعجلين الذين يفرون منها بانكارها انكارا كليا ، أو لآخرين يصدقون كل ما يروى فيها دون تمحيص ، أو لغيرهم ممن يؤولونها على غير وجهها .

هدف الحديث :

يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة بأن جذوتها لن تخبو ، وأن دينها لن يموت . وأن الله يقيض لها كل فترة زمنية - قرن من الزمان - من يجدد شبابها ، ويحيى مواتها .

وليس المقصود برأس المائة : سنة مائة أو مائة وواحد مثلاً ، بل أواخر كل قرن وأوائل القرن الذي يليه . فكل يطلق عليه (رأس) . بل نحن في الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن رأس المائة من الهجرة النبوية أو من الوفاة أو من البعثة ، كما سنبين بعد .

المهم أن الله لا يدع هذه الأمة دون أن يهيء لها من يوقظها من سبات ويجمعها من شتات .

ونحن في حاجة إلى تأكيد هذا المعنى ، حتى نقاوم موجة اليأس التي علا مدها وأنه لا فائدة ولا أمل ، وأن الإسلام في إدبار ، والكفر في إقبال . وأن علامات الساعة الصغرى قد ظهرت ، وستظل هكذا حتى تظهر العلامات الكبرى وتقوم الساعة على من لا يقول : الله ، الله . كما جاء في الصحيح(٧) .

ويؤكد قوم هذا المعنى بأحاديث يفهمونها على غير وجهها مثل حديث : «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء»(٨) .

ونسى هؤلاء أن غربة الإسلام لا تعني ضعفه بإطلاق ، وكذلك غربة المتمسكين به والداعين إليه لا تعني ضعفهم أو هوانهم ، بل تعني تميزهم ، وعدم ذوبانهم في غيرهم . فهم كالشامة في الناس .

وفي بعض روايات هذا الحديث ، وصف النبي ﷺ الغرباء بقوله : «الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»(٩) فهؤلاء الغرباء ليسوا يائسين ولا سلبيين في مجتمعاتهم ، بل يصلحون ما أفسد الناس من سنن الإسلام ، ويحيون ما مات من آدابه وأخلاقه .

وليس في الحديث ما يدل على أن هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة ، فقد تكون غربة في بلد دون آخر وفي قوم دون غيرهم ، وفي زمن دون زمن ، كما ذكر ابن القيم(١٠) ، ثم يتبدل الحال ، فيصبح الضعيف قويا ، والمقهور منصورا .

ويستدلون هنا كذلك بحيث انس عند البخاري : «لا يأتي عليكم زمان إلا

والذي بعده شر منه»(١١) ولا ينبغي أن يؤخذ هذا الحديث على ظاهره وإطلاقه وعمومه .

فقد رأى بعض العلماء له تأويلا حسنا ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه وهو : أن الحديث مراد به خصوص من سمعوه من الصحابة ، وإن فهم أنس رضى الله عنه منه العموم(١٢) . يعني : أن النبي - ﷺ - أراد من هذا الحديث أن يرشد هذه المجموعة التي سمعت من أصحابه ، أن يهيئوا أنفسهم لتغير الزمان، بعد عهد النبوة، حتى لا يصدهم الواقع الذي يعيشون بعده، والتغيرات المذهلة التي سيشهدونها ، ولا يدفعهم ذلك إلى زعزعة الثقة بدينهم ومنهجهم .

ولولا ذلك الفهم لتناقض الحديث مع الواقع ، فقد كان زمن عمر بن عبد العزيز خيرا من زمن من قبله من بني أمية .

وكذلك زمن نور الدين محمود(١٣) الشهيد وصلاح الدين الأيوبي(١٤) - اللذين حرر الله على أيديهما أرض الإسلام من الصليبين ، وأحيا بهما السنة ، وأمات البدعة - كان خيرا من أزمنة من قبلهما .

وكذلك لو أخذ الحديث على ظاهره كما يفهمه كثيرون ، لتناقض مع الأحاديث التي دلت على ظهور الإسلام وانتشاره قبل قيام الساعة ، وخصوصا عند ظهور ذلك الخليفة أو الأمير الصالح الذي يملأ الأرض عدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، وهو الذي اشتهر باسم «المهدي»(١٥) وعند نزول المسيح عيسى بن مريم ليحكم بالإسلام ، ولا يقبل دينا غيره(١٦) .

ولا أدري لماذا تشاع الأحاديث من هذا النوع ، ويهال التراب على نوع آخر من الأحاديث التي تحمل الأمل والبشرى للأمة ، مثل حديث أحمد والترمذي : «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أو أخره»(١٧) .

وحديث أحمد وابن حبان والحاكم : « بشر هذه الأمة بالسناء والدين ،

والرفعة والنصر ، والتمكين في الأرض . . »(١٨) .

وحديث أحمد وابن حبان « ليبلغن هذا الأمر (يعني هذا الدين) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر»(١٩) .

أما ظهور بعض العلامات الصغرى للساعة ، فلا يعني أن صفحة الإسلام قد طويت، وأن الساعة ستقوم غداً أو بعد غد، فإن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة الصغرى ، كما جاء في الصحيح « بعثت أنا والساعة كهاتين »(٢٠) وأشار بإصبعيه : السبابة والوسطى .

المسلم مطالب بالعمل لدينه ودنياه دائماً :.

على أن المسلم مطالب بأن يعمل لدنياه منتجاً معطاء ، حتى تلفظ الحياة آخر انفاسها . ولا يتوانى في عمارة الأرض لحظة واحدة ، وهذا ما علمناه رسول الله ﷺ حين قال : إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة - نخلة صغيرة - فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها »(٢١) .

ولماذا يغرسها والساعة قائمة ، أو ستقوم اللحظة ؟ إنه لن يعيش حتى يجني ثمرة ما غرست يداه ؟ وليس هناك من سيعيش بعده حتى يقول : غرس لنا من قبلنا فأكلنا ، ونغرس ليأكل من بعدنا ! فالساعة تقوم على الجميع . الفكرة هنا هي تكريم العمل لذات العمل ، ووجوب أن يبقى المؤمن عاملاً معطاء إلى اللحظة الأخيرة ما دام فيه قدرة على العطاء .

فإذا كان هذا مطلوبا لدنيا المرء فكيف لا يكون مطلوبا لدينه ؟ كيف يكون الدين اهون عند الله من الدنيا ؟!

إن المؤمن مطالب أن يعمل لدينه ما استطاع ، داعياً إلى الخير آمراً

بالمعـروف ، ناهياً عن المنكر ، مجاهداً في سبيل الله ، مقاوما للشر والفساد ، متعاونا مع اخوانه المؤمنين على البر والتقوى ، فإن النصوص التي أمرت بهذا كله لم تنسخ ، ولم تخصص بزمن ، بل هي باقية محكمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقفة مع الحديث :

ولابـد لنـا أن نبـين في الحديث معنى المجدِّد ، ومن يكون ؟ وما الدين المجدَّد ؟ ومن المجدَّد له ؟ وما معنى التجديد ؟ ومامداه ؟ وجوانبه ؟ .

من يقوم بالتجديد ؟

أما من يقوم بالتجديد والاحياء ، فذلك موقوف على بيان معنى «من» هنا .

فكلمة «من» في الحديث الشريف «من يجدد» قد فهمها الأكثرون على أنها للمفرد ، ولذلك اعتبروا المجدد فردا واحدا ، من عباقرة الأمة وافذاذها تبعثه العناية الألهية ، ليجدد ما درس ، ويقوي ما ضعف ، ويرتق ما فتق .

ومن هنا ذكروا عدداً من المجددين الأفراد ، فمجدد المائة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ) ، ومجدد المائة الثانية محمد بن ادريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) واختلفوا في مجدد المائة الثالثة حيث كان على رأسها أكثر من علم . . . فذكروا أبا الحسن الأشعري (ت٣٢٤) ، وأبا العباس بن سريج (ت٣٠٦) والنسائي صاحب السنن (ت٣٠٣هـ) وذكروا في الرابعة القاضي أبا بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) وأبا حامد الاسفراييني (ت٤٠٦هـ) ، وفي الخامسة أبا حامـد الغـزالي (ت٥٠٥هـ) ، وفي السـادسـة الفخـر الرازي (ت٦٠٦هـ) ، وقيل : الرافعي (ت٦٢٣هـ) .

وفي السابعة : ابن دقيق العيد (ت٧٠٣)ء .

وفي الثامنة : الحافظ زين الدين العراقي (ت٨٠٨هـ) أو سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥) .

وقد نظم الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١) منظومة في ذلك ضمنها أسماء المجددين إلى زمنه ، وطمح إلى أن يكون هو مجدد المائة التاسعة ، كما ادعى الاجتهاد المطلق ، وانكر عليه من انكر من معاصريه .

وقد نقلها العلامة المناوي في فيض القدير . وفيها قال :

الحمد لله العظيم المنه ... المانح الفضل لأهل السنة
ثم الصلاة والسلام نلتمس ... على نبي دينه لا يندرس
لقد أتى في خبر مشتهر ... رواه كل عالم معتبر
بأنه في رأس كل مائة ... يبعث ربنا لدين الأمة
منا عليها عالما يجدد ... دين الهدى لأنه مجتهد
فكان عند المائة الأولى عمر ... خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعي كان عند الثانية ... لما له من العلوم السامية
وابن سريج ثالث الأئمة ... والأشعري عده من أمه
والباقلاني رابع أو سهل آو ... الأسفرايينّ ، خلْف قد حكوا
والخامس الحبر هو الغزالي ... وعده ما فيه من جدال
والسادس الفخر الإمام الرازي ... والرافعي مثله يوازي
والسابع إلى الراقي إلى المراقي ... ابن دقيق العيد باتفاق
والثامن الحبر هو البلقيني ... أو حافظ الأنام زين الدين
والشرط في ذلك أن تمضي المائة ... وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم إلى مقامه ... وينصر السنة في كلامه

وأن يكون جامعا لكل فن	وأن يعم علمه أهل الزمن
وأن يكون في حديث قد روى	من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهور	قد نطق الحديث والجمهور
وهذه تاسعة المئين قد	أتت ولا يخلف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد	فيها ففضل الله ليس يجحد(٢٢)

وإذا كان السيوطي قد رجح كون المجدد فردا ، لأنه المشهور عند الجمهور فقد نقل المناوي، قول الحافظ الذهبي . «مَن» هنا للجمع لا للمفرد، فنقول مثلا : على رأس الثلاثمائة : ابن سريج في الفقه ، والأشعري في الأصول ، والنسائي في الحديث ، وعلى الستمائة مثلا : الفخر الرازي في الكلام ، والحافظ عبد الغني في الحديث ، وهكذا(٢٣) .

وقال ابن الأثير في « جامع الأصول » .

(قد تكلموا في تأويل هذا الحديث ، وكل أشار إلى القائم الذي هو من مذهبه ، وحملوا الحديث عليه ، والأولى العموم ، فإن « من » تقع على الواحد والجمع ، ولا تختص أيضاً بالفقهاء ، فإن انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولي الأمر ، وأصحاب الحديث ، والقراء ، والوعاظ ، لكن المبعوث ينبغي كونه مشارا إليه في كل من هذه الفنون .

ففي رأس الأولى من أولي الأمر : عمر بن عبد العزيز . ومن الفقهاء : محمد الباقر ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، والحسن ، وابن سيرين وغيرهم من طبقتهم . ومن القراء : ابن كثير . ومن المحدثين : الزهري .

وفي رأس الثانية من أولي الأمر : المأمون ، ومن الفقهاء : الشافعي واللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة وأشهب من أصحاب مالك ، ومن الإمامية علي

بن موسى الرضا ، ومن القراء : الحضرمي ، ومن المحدثين : ابن معين ، ومن الزهاد : الكرخي .

وفي الثالثة من أولي الأمر : المقتدر ، ومن الفقهاء : ابن سريج الشافعي ، والطحاوي الحنفي ، والخلال الحنبلي ، ومن المتكلمين : الأشعري ، ومن المحدثين : النسائي .

وفي الرابعة من أولي الأمر : القادر ، ومن الفقهاء : الاسفراييني الشافعي ، والخوارزمي الحنفي ، وعبد الوهاب المالكي ، والحسين الحنبلي ، ومن المتكلمين : الباقلاني وابن فورك ، ومن المحدثين : الحاكم ، ومن الزهاد : النوْري . وهكذا يقال في بقية القرون(٢٤) .

وذكر الحافظ في (الفتح) ما نبه عليه البعض وهو : أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن واحدٌ فقط ، بل الأمر فيه كما ذكره النووي في حديث : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ، ومحدث ، ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهد وعابد . ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وتفرقهم في الأقطار . ويجوز تفرقهم في بلد ، وأن يكونوا في بعض دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم ، أولا فأولا ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا أتى أمر الله .

قال الحافظ ابن حجر : وهذا متجه ، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد ، إلا أن يدعى ذلك في ابن عبد العزيز ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير ، وتقدمه فيها ، ومن ثم

اطلق أحمـد : أنهم كانـوا يحملون الحـديث عليه (يعني الحـديث الـوارد في التجديد) . وأما من بعده فالشافعي وإن اتصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمة ، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل .

قال : فعلى هذا كل من اتصف بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد تعدد أم لا »(٢٥) انتهى .

مناقشة وترجيح :-

والذي اختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما : أن « من » في الحديث المذكور ، تصلح للجمع كما تصلح للفرد .

وذلك أن « من » في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك ، وفي القرآن الكريم : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ﴾ (النسـاء : ١٢٤) . إذا عرفنا هذا ، فقد يكون المجدد فرداً ، يهيئه الله ليقوم بمهمـة الإحياء والتجديد كعمر بن عبد العزيز ، وقد قيل : فرد ذو همة يحيي أمة ! وقال الشاعر :

ليـس على الله بمسـتنكـر أن يجمـع العالـم في واحـد !

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة : فكرية أو تربوية أو جهادية يتواصى أهلها بالحق والصبر ، ويتعاونون على البر والتقوى .

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة ، كل في موقعه ومجال اهتـامـه واختصـاصـه . هذا في مجال العلم والفكـر ، وذاك في مجال السلوك والـتربية ، وثالث في مجال خدمة المجتمع ؛ ورابع في مجال الحكم والسياسة ،

وآخـرون في مجال الجهاد والمقاومة ، وكل على ثُغرة من ثُغَر الإسلام : اتحدت أهدافهم ، ومبادئهم ، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم .

وهنا أحب أن أنبه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أن يعـوه وهـو أن اختـلاف مناهج العمل للإسلام ، وتعدد الجماعات العاملة لتجـديده ، ليس ظاهـرة مَرَضيّة ، ولا أمراً مذموماً عند الله ، ولا عند الذين آمنوا ؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص ، لا اختلاف تضاد وتناقض ، بمعنى أن يكـون هنـاك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل ، بحيث يكمـل بعضهـا بعضـا ، ويشـد بعضها أزر بعض ، وتجمعها القضايا الكبرى ، والمواقف المصيرية ، لتواجه العدو المشترك صفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

أما أن يحاول كل منهم إثبات نفسه ونفي غيره ، ويجعل أكبر همه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين ، فإنه بذلك يؤدي إلى ضعف القوى الإسلامية كلها ، وتآكلها من داخلها . كما يفتح ثُغرة للعدو المشترك ليضرب الجميع ، وهو آمن مستريح !

ويكـون معنى «البعث» في الحـديث : تهيئـة الأسباب المواتية ، وإتاحة الظروف المناسبة وخلق المناخ الملائم ، لظهور حركة التجديد للدين ، والاحياء للأمة ، وفق سنن الله تعالى التي لا تتبدل .

وليس معنى (البعث) إذن إظهار مجدد بخارقة من الخوارق الكونية ، يهبط من السماء بغتة ، أو تنشق عنه الأرض فجأة ، ليغير ما بالناس ، وإن لم يغيروا هم ما بأنفسهم .

وهذا الذي فهمناه من الحديث هو الموافق لما جاءت به الأحاديث الأخرى التي ناطت نصرة الدين في الزمن الأخير بطائفة تقوم على الحق ، لا بفرد واحد ،

كما في الحديث الصحيح المعروف : « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وقد ورد عن عدد من الصحابة بالفاظ متقاربة(٢٦) .

بل هو الموافق لما في كتاب الله تعالى حيث يقول : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون ﴾ (الأعراف : ١٨١) .

وقد ورد : هذه الآية لكم ، يعني المسلمين ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها(٢٧) . يشير إلى قوله تعالى في نفس السورة ﴿ ومن قوم موسى يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (آية : ١٥٩) .

وهـذا الـذي جاء به الخبر الإلهي ، جاء بمثله الأمر الإلهي في مثل قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ﴾ (سورة آل عمران : ١٠٤) . ويؤكده مثل قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ (سورة المائدة : ٢) ، وقوله : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (سورة العصر : ٣) وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقـاتـلون في سبيله صفـا كأنهم بنيـان مرصـوص ﴾ (سورة الصفُ : ٤) ، وقوله ﷺ : «يد الله مع الجماعة»(٣٩) .

والحق أن الفرد مهما تكن مواهبه ، ومهما يكن عطاؤه ، فهو محدود الطاقة والقـدرة ، ما لم يكن معـه أعـوان يشـدون أزره ، ويقوون أمره . فالمرء قليل بنفسه ، كثير باخوانه ، ضعيف بمفرده ، قوي بجماعته وأعوانه .

ولهـذا قال موسى عليه السـلام - وهـو القـوى الأمـين - حين كلفه الله بالـرسـالة : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . أشدد به أزري . وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً ﴾ (سورة طه : ٢٩ - ٣٥) وقال الله تعالى في جوابه : ﴿ سنشد عضدك بأخيك

ونجعل لكما سلطاناً ﴾ . (سور القصص : ٣٥) .

وهذا يدلنا على أن الفرد مهما قوي يحتاج إلى معونة غيره حتى يشتد عضده .

واصرح من ذلك وأوضح قول الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألفّ بين قلوبهم ﴾ (الأنفال : ٦٢ ، ٦٣) .

فقد من الله عليه بأنه أيده بنصره وبالمؤمنين المؤلفة قلوبهم على غاية واحدة وعقيدة واحدة ، أي أيده بالجماعة المؤمنة المترابطة .

وإذا فهمنا الحديث هذا الفهم لم نعد في حاجة إلى انتظار ﴿ مجدد ﴾ أو مهدي فرد ، يهبط علينا من السماء في علبة مغلقة ، دون أي جهد أو سعي منا .

ولم نعد في حاجة إلى أن يدعى واحد من الناس أنه مجدد القرن الأوحد ، فيقبل منه قوم ويرفضه آخرون ، كما فعل الجلال السيوطي رحمه الله ، حين ادعى أنه مجدد المائة التاسعة ، فانكر عليه كثير من معاصريه .

ولم نعد في حاجة إلى أن يدعى واحد أو فئة لزيد أو عمرو من الناس أنه مجدد المائة العشرة أو الرابعة عشرة له ، ولا نظير له ، فيقبله من كان على مذهبه أو مشربه ، ويوسعه الآخرون تهكما وسخرية .

ولم نعد في حاجة إلى أن ينصب كل فريق لترشيح مجدد منه ، فأهل الحديث يرشحون محدثاً ، وعلماء الكلام يقدمون متكلما ، ورجال الفقه لا يذكرون إلا فقيهاً . وكل جماعة يقدمون فقيها من مذهبهم ، فالشافعية يقدمون شافعيا ، والحنابلة يرشحون حنبليا ، وهكذا نجد المهتمين بالسياسة يرشحون خليفة أو أميرا ، والمهتمين بالجهاد يرشحون قائدا عسكريا .

أننا بهذا الفهم نشرك الأمة كلها في التجديد المنشود ، فهي التي تفرز

المجـــددين ، وتصقلهم ، وتحــركهم ، وتهيء الـظروف المنـاسبـة لظهـورهم وحـركتهم . وهي التي تسـاعـدهم على تحقيق آمـالهم ، وإزالـة العقبات من طريقهم ، وتمدهم بالزاد والوقود في رحلتهم الطويلة إلى ـ يشدون . . . وهي التي تعطي كل فرد موقعه في قافلة التجديد . ليحرسه ويرعاه كما قيل : أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك .

وهنا يصبح سؤال كل مسلم : ماذا يكون دوري في حركة التجديد ؟ وما واجبي نحوه ؟ بدل أن يكون كل همه وسؤاله: متى يظهر المجدد ؟! .

متى يقع التجديد ؟:

ولكن متى يقع التجديد ؟

إن الحديث حدد للتجديد وقتا هو « رأس كل مائة سنة» . ورأس الشي أعلاه . ورأس السنة أولها .

وقـد تسـاءل الشراح هنـا عن بداية المائة ، فقال المناوي : يحتمل المولد النبوي ، أو من البعثة ، أو الهجرة ، أو الوفاة ، قال : ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد ، لكن صنيع السبكي و غيره مصرح بأن المراد الثالث(٣٠) (أي الهجرة) . ا هـ .

وذلـــك أنهم في حديثهم عن المجـــددين اعتـبروا التـاريخ الهجـري هو الأساس ، وهو معقول ، لأنه التاريخ الذي الهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرخوا به دون غيره ، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة .

ويلاحظ أنهم جعلوا العبرة بوفاة المجدد في رأس القرن ، كما يوضح ذلك تاريخ وفيات الـذين عينـوهم للتجـديد ، فعمـر بن عبد العزيز ت١٠١هـ ، والشافعي ت٢٠٤ ، وابن سريج ت٣٠٦ والباقلاني ٤٠٣ والغزالي ت٥٠٥هـ

والرازي ٦٠٦هـ . وابن دقيق العيدت ٧٠٣ ، والعراقي ت٨٠٨ . ولم يذكروا إمـامـا مثـل ابن تيمية برغم حركتـه التجديدية الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه ، لأنه تأخرت وفاته عن رأس المائة . ت٧٢٨هـ .

والحديث لم يقل : إن الله يتوفى المجدد على رأس القرن ، بل يبعثه على رأس القرن ، ومعناه : أن مهمته تبدأ في رأس القرن ، وليست تنتهي عنده .

وقد رأيت العلامة المناوي نبه على هذا المعنى ، فقال :

« وهنا تنبيه ينبغي التفطن له ، وهو أن كل من تكلم على حديث « إن الله يبعث . . . » الخ . إنما يقرره بناء على أن المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسـه . وأنت خبير بأن المتبـادر من الحـديث إنـما هو أن البعث - وهو الإرسـال - يكـون على رأس القرن ، أي أوله . ومعنى إرسال العالم : تأهله للتصدي لنفع الأنام ، وإنتصابه لنشر الأحكام ، وموته على رأس القرن أخذ لا بعث ! فَتَدَبَّرْ بانصاف .

قال : ثم رأيت الطيبي قال : المراد بالبعث من انقضت المائة ، وهو عالم مشهور مشار إليه .

والكـرماني قد قال : قد كان قبيل كل مائة أيضا من يصحح ويقوم بأمر الدين ، وإنما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه .

بل ذكر المناوي : أنه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك ، بل قد يكون أفضل من المبعوث على الرأس وأن تخصيص رأس القرن ، إنما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالباً ، وظهور البدع ، ونجوم الدجالين(٣١) .

والذي أراه أن الحديث يفيد أنه لا يبزغ قرن ، ألا ويبزغ معه فجر جديد ، وأمل جديد ، وبعث جديد ، حتى تستقبل الأمة المسلمة القرن بقلوب يحدوها الرجاء في غد أفضل ، وعزائم مصممة على عمل أمثل ، ونيات صادقة في تغيير

الواقع بما يوافق الواجب . وخصوصاً أن المفروض في الأمة أن تقف على رأس القرن مع نفسها وقفة محاسبة وتقويم ، محاولة أن تستفيد من ماضيها ، وتنهض بحاضرها ، وترقى بمستقبلها . مبتهلة إلى ربها أن يكون يومها خيرا من أمسها ، وغدها خيرا من يومها .

من المجدّد له :

أما المجدد له ، كما بين الحديث فهو (هذه الأمة) ، وهي الجماعة المحمدية ، كما قال المناوي . وأصل (الأمة) الجماعة ، مفرد لفظاً ، جمع معنى ، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي ، وهم باعتبار بعثه فيهم ، ودعائهم إلى الله ، يسمون (أمة الدعوة) . فإن آمنوا كلا أو بعضاً ، سمى المؤمنون (أمة الإجابة) وهو المراد هنا ، بدليل إضافة الدين إليها في قوله (دينها)(٣٢) .

فكلمة « لهذه الأمة » إشارة إلى أمة الإسلام ، أمة الإجابة ، على امتداد قرونها وأجيالها . كأن النبي - ﷺ - يستحضرها أمامه ، ويشير إليها بقوله «هذه الأمة» .

وهي الأمة المذكورة في القرآن الكريم ، في مثل قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٣) ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) .

ولا يعرف القرآن ولا السنة أمة غير الأمة الإسلامية . وهي أمة واحدة كما أمر الله تعالى ، وإن اختلف أجناسها وألوانها وأوطانها . ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ (سورة الأنبياء : ٩٢) ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (المؤمنون : ٥٢) .

ولا يجوز أن نقول كما يقول بعض الناس : (الأمم الإسلامية) ، فليس في

الإسلام (أمم) ، بل (أمة) واحدة ، ولكن هناك (شعوب إسلامية) داخل هذه الأمة .

والتجديد المطلق الكامل هو الذي يغطي مساحة الأمة الإسلامية كلها ، ويؤثر فيها جميعا ، كما أن التجديد الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معاً . وقد رأينا هذا في مثل تأثير عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي ونحوهم ، ممن أثروا في محيط الأمة المسلمة جمعاء ، وإن كان تأثير كل منهم في جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإسلامية .

ولكن التجديد قد يكون جزئياً ، خاصا بجانب من جوانب الحياة ، أو بقطر من الأقطار . أو بفئة من الفئات ، أو نحو ذلك ، وقد يتسع لأكثر من جانب وأكثر من فئة ، وأكثر من بلد .

ما الدينُ المجدَّد ؟!

أما (المجدَّد) في الحديث فهو (الدين) . ولكن ما المراد بـ «الدين» في الحديث ؟

وكلمة «الدين» ومثلها كلمة «الإسلام» إذا اطلقت تعني أحد أمرين :

أولهما : المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع ، لينظم بها علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض . وهو ما عبر عنه العلامة ابن خلدون بأنه : « وضع الهي سائق للبشر باختيارهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم » .

وهذا المعنى - بالنظر إلى أسسه وأصوله - ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية .

والثاني : الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكرا

وشعورا ، وعملا وخلقا ، وفي هذا المعنى يقال : فلان ضعيف الدين أو قويه ، حسن الإسلام أو رديء الإسلام .

والدين هنا متغير متحرك ، فهو يزيد وينقص ، ويضعف ويقوى ، ويصفو ويكدر ، ويستقيم وينحرف ، بحسب فهم الإنسان له ، وإيمانه به ، والتزامه بتعاليمه .

وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد ، ولا غرو إن جاء الدين في الحديث الذي معنا مضافا إلى الأمة ، وليس مضافا إلى الله « ليجدد لها دينها » فالتجديد ينصب على دين الأمة ، وليس على دين الله تعالى .

معنى التجديد :

وبهذا نرى أنه لا معنى لانكار بعض العلماء عبارة «التجديد» في الدين وتوجسهم خيفة أن يستخدمها بعض المنحرفين فيما لا يقبله الإسلام ، فلسنا أحرص على الدين ممن بعثه الله به ، وقد نطق بهذه الكلمة وصح بها الحديث ، فلم يعد يسع مسلما أن يتخوف من استعمالها . وإنما المهم هو تحديد مدلولها حتى لا يستخدمها كل فرد أو كل فريق بما يحلو له . فما معنى التجديد هنا ؟!

نقل العزيزي في شرحه للجامع الصغير عن العلقمي : أن معنى التجديد : إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما(٣٣) ، فجعل التجديد ينصب على (العمل) .

وقال المناوي في معنى (يجدد) : يبين السنة من البدعة ، ويكثر العلم ، وينصر أهله ، ويكسر أهل البدعة(٣٤) . فجعل التجديد منصبا على (العلم) وفي مقام آخر قال : يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة ، وما ذهب من معالم السنن ، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة(٣٥) . وهو يشمل العلم

والعمل . والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعاً .

وأود أن أنبه هنا على معنى مهم في قضية التجديد وهو : أن التجديد لشيء ما هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد . وذلك بتقوية ما وهى منه ، وترميم ما بلى ، ورفق ما انفتق ، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى .

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم ، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر ، فهذا ليس من التجديد في شيء .

ولنأخذ بذلك مثلا في الحسيات . إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق ، فمعنى تجديده : الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه ، وكل ما يبقى على خصائصه وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية . وتحسين مداخله ، وتسهيل الطريق إليه ، والتعريف به . . . الخ . . . وليس من التجديد في شيء أن نهدمه ، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه .

وكذلك الدين : لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه ، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول وصحابته ومن تبعهم بإحسان .

وهذه العودة لا تخيف ، كما يتوهم بعض الناس ، أنها في الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير ، إلى التبشير لا إلى التنفير ، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور .

إن الذي يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنهم أفقه الناس لروح الإسلام ومقاصده . ولم يكونوا حرفيين ، ولا شكليين . كانوا ملتزمين كل الالتزام بشرع الله . ومع هذا كانوا يجتهدون في أحكام الوقائع بروح سمحة ، تعلم الناس أن الله لم يشرع دينه إلا لمصلحة عباده ، وإنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر . وكان منهجهم كما عبر عنه الإمام علي رضى الله عنه ترجيح (النمط الأوسط) الذي

يلحق به التالي ، ويرجع إليه الغالي .

إن مفتاح التجديد للدين هو: الوعي والفهم ، وبعبارة إسلامية صحيحة هو : الفقه ، ولا أعني بالفقه المعنى الإصطلاحي المعروف ، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق فقط ، وإن كان هذا مطلوباً ومحموداً ، ولكن أعني بالفقه : مفهومه القرآني والنبوي وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ (الأنعام : ٩٨) وهو الذي نفاه الله عن المشركين وغيرهم من أعداء المسلمين حين وصفهم بأنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ (سورة الأنفال : ٦٥) وقال عن أهل جهنم ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ سورة الأعراف : ١٧٩) وقال تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (سورة التوبة : ١٢٢) وقال ﷺ « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »(٣٦) .

والفقه هنا كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان : فقه في الكون ، وفقه في الدين . فالأول يعني الفهم عن الله فيما خلق ، والثاني يعني الفهم عن الله فيما شرع .

الفقه في الكون يراد به : الفقه لأيات الله في الأنفس والآفاق ، ولسننه التي لا تتبدل في الكون والإنسان ، كما يدل على ذلك سياق الآيات الكريمة .

والفقه في الدين هنا يعني ، المعرفة التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحصة للإسلام من ينابيعه الصافية ، بحيث يفهم فهما سليما ، خالصا من الشوائب ، بعيدا عن غلو المتطرفين ، وتقصير المضيعين ، مسترشدين بهدى الجيل الأول الذين كانوا افهم الناس لمقاصد الإسلام ، وأحرصهم على التزامه والعمل به . . . غير غافلين عما تميز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير ، مفرقين بين الكليات والجزئيات ، وبين الأصول والفروع من الأحكام ، مميزين بين ما

شأنـه الثبـات والخلود ، ومـا شأنه المرونة والتغير ، مفرقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع ، حسنات كانت أو سيئات ، فليست الأركان كبقية الفرائض ، وليست الفرائض كالواجبات ، ولا الواجبات كالسنن الرواتب ، ولا الرواتب كالمستحبات .

ومن ناحية أخرى : ليس الكفر كالمعاصي وإن كانت كبائر ، وليست كبائر المحرمات كصغارها ، وليست الصغائر المتفق عليها كالمشتبهات المختلف فيها ، وليست المحرمات كالمكروهات ، ولا المكروه تحريما كالمكروه تنزيها ، ولا المكروه تنزيها كخلاف الأولى ، ولكل عمل مرتبته ، ولكل مرتبة حكمها .

ومن أعـظم الخـطل والخطر تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال ، واعتبار الجميع شيئاً واحداً . فإن الجمع بين ما فرقه الله ، كالتفريق بين ما جمعه الله ، كلاهما لا يجوز .

ونحن في مطالع القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق . تجديد يعيد للاجتهاد حياته ونشاطه من جديد ، والاجتهاد بنوعيه : الترجيحي الانتقائي والإبداعي الإنشائي . اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام . ويصف لادواء مجتماعاتنا أدويتها الناجحة من صيدلية الإسلام نفسه ، لا من مصنوعات الغرب العلماني أو الشرق الإلحادي .

وهذا يوجب على المجامع العلمية المعنية بهذا المجال أن تعين على ذلك ، ولا تضيق صدرا بالآراء الاجتهـادية . كما يجب على كليات الشريعة أن تجعل مناهجها وكتبها ودراساتها في الفقه وأصوله وتأريخه - وبخاصة فقه القرآن والسنة في ضوء المقارنة العلمية - قادرة على تكوين العقلية الفكرية المستقلة ، المرشحة للاجتهـاد في مجالاتـه الانتقـائية والإنشـائية . وأن تنمي قدرات النـابهين من

طلابها ، وتقوي عزائمهم على المضي في هذا الطريق .

تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر ، مخاطباً كل قوم بلسانهم ، واعياً لخصائص العصر ، وخصائص الإسلام ، وخصائص الأقوام ، مدركاً المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (سورة ابراهيم : ٤) .

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالانجليزية ، والصينيين بالصينية فحسب . بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه ، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه . ولكل منهما مدخل قد يصلح له ، ولا يصلح للآخر .

وهذا يعني تطوير أجهزة الدعوة وأساليبها وقدرات رجالها ، وفقا لما يتطلبه العصر ، ويوجبه الإسلام ، ويحتمه ما يصنعه الآخرون .

والحديث إلى قوم وصلوا إلى سطح القمر ، غير الحديث إلى من يعيشون في الأدغال . فلهؤلاء لسان ، ولاولئك لسان ، ولابد أن نعرف لسان كل قوم لنعقل عنهم ، ونبين لهم .

تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح مستمد من فلسفة الإسلام الكلية ، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، مستفيد من كل المدارس القائمة ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها ، دون أن يكون أسيرا لفلسفة واحدة منها ، أو لفلسفاتها جميعا .

وهذا يعني : أن تتحرر جامعاتنا من ربقة التقليد للفكر الغربي بشقيه الليبرالي والماركسي ، وأن ترجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحافل ، تأخذ منه وتضيف إليه ، وتعدل فيه ، وتنشىء أجيالا مستقلة الفكر ، تجمع بين الأصالة الإسلامية والحداثة العصرية .

وهذا واجب كل الجامعات في بلادنا العربية والإسلامية ، وواجب

الجامعات الإسلامية فيها على وجه الخصوص . مثل جامعة الأزهر ، وجامعة الإمام محمد بن سعود ، والجامعة الإسلامية العالمية باسلام آباد ، ونحوها . . . وذلك بحكم تكوينها وانتمائها ونوعية القائمين عليها .

تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في (فروض الكفايات) من العلوم الكونية والرياضية ، وتطبيقاتها (التكنولوجية) في المجالات المدنية والعسكرية ، ويجعل امة (سورة الحديد) قادرة على تصنيع الحديد ، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة ، بحيث لا تكون عالة على غيرها ، في القوت الذي يحييها ، وفي السلاح الذي يحميها .

وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه ، وفقاً لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام ، ويحتمه التطور .

وإذا كان أهل الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية يتنادون بوجوب تطوير التعليم عندهم بما يتناسب وطفرات العصر ، ويرون أن الأمة على حافة الخطر ، إذا لم تتدارك مسيرتها التعليمية . . . . فماذا يكون حالنا نحن . . . ؟ .

والتجديد للدين ليس فكريا فحسب ، كما هو مفهوم الكثيرين ، عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه ، فلا يكاد يدور بخلدهم إلا تجديد الاجتهاد ، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة .

ولا ريب في أن تجديد الفكر ، وإحياء الاجتهاد ، وتصحيح الفهم ، تأتي في طليعة التجديد المنشود ، فإن العلم يسبق العمل ، والفكرة تسبق الحركة .

وحسبنا أن الله بدأ وحيه لرسول ﷺ بآية ﴿ اقرأ ﴾ والقراءة هي مفتاح العلم والفكر والتأمل .

ولكن الإنسان ليس عقلا فقط ، بل هو عقل وقلب ، وجسم وروح ، فلا بد للتجديد أن يشمل كيان الإنسان كله ، وهو ما رعاه الإسلام أعظم الرعاية ،

فأعطى لكل منها حقه .

وقد اتفق العلماء الذين عنوا بتحديد اسماء المجددين في تاريخ الإسلام ، على أن عمر بن عبد العزيز هو مجدد المائة الأولى (ت١٠١هـ) على رغم قصر مدة خلافته ، فلم تزد على ثلاثين شهراً .

وتجديد عمر لم يكن في الجانب الفكري أو العلمي - كتجديد الشافعي في رأس المائة الثانية - بل كان تجديده في ميدان العمل والحكم ، حيث أبطل تقاليد الجـور ، وأحيا سنن العدل ، وأزال المظالم ، ورد الحقوق إلى أهلها ، ورفض مطالب الطامعين من أهله ، وأشاع جو التقوى لله والخشية منه ، والرغبة فيما عنده ، ولهذا اعتبروه خامس الراشدين .

فعل ذلك كله بلا ادعاء ولا تظاهر ولا تفاخر . بل كان يناجي ربه راجياً خائفاً ، فيقول : اللهم أن عمر ليس أهلا أن ينال رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر !!

وقال له مرة أحد الناس بعد موقف من مواقفه المحمودة : جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين . فقال : بل جزى الله الإسلام عني خيراً !!

فرد الحق لأهله ، ووضع الأمر في نصابه . فالإسلام هو الذي صنع عمر ، وليس عمر الذي صنع الإسلام .

تجديد الايمان :

ونعني بالإيمان هنا : العقيدة الإسلامية وأساسها التوحيد ، وعناصره ثلاثة أساسية : ألا نبتغي غير الله ربا ، ولا نتخذ غير الله وليا ، ولا نبتغي غير الله حكما .

وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وبعـد التوحيد يأتي الشق الثاني من العقيدة وهو الإيمان بالرسالة . «وأن محمدا رسول الله» ليس إلها ولا ابن إله . ولا ثلث إله ، ولا محلا حل فيه إلا له . إنما هو عبد الله ورسوله ، انزل الله عليه كتابه ، وبلغ ما أوحي إليه من ربه ، لم يخن ولم يكتم ، ولم ينطق عن الهوى . «إن هو إلا وحي يوحى» . (النجم : ٤) .

ومن أركان هذه العقيدة التي بلغها محمد عن ربه : الإيمان بالآخرة والجزاء ، وأن الموت ليس نهاية المطاف ، وأن وراء هذه الحياة الفانية حياة أخرى باقية ، توفي فيها كل نفس ما كسبت ، وتجزي بما عملت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

أهمية الايمان في حياتنا :

والإيمان في حياتنا نحن المسلمين ليس شيئا على هامش الحياة . إنه جوهر وجودنا ، وسر بقائنا ، ولب رسالتنا . . . وبدونه لا معنى لحياتنا ولا مبرر لوجودنا . . .

وإذا كان لكل شخصية مفتاح ، تستطيع إذا عرفته واستخدمته أن تعرف به مكنوناتها ، وتفجر به مخزون طاقاتها . فإن مفتاح شخصية الإنسان في أمتنا هو الإيمان .

وكما أنك بلمسة المفتاح أو زر خاص للسيارة في البر ، أو الباخرة في البحر ، أو الطائرة في الجو . . . تستطيع أن تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وتقطع بها المسافات . فكذلك نستطيع بعامل الإيمان أن نحرك كوامن هذه الأمة ، ونصنع منها وبها العجائب وروائع البطولات ، التي تحكى كالأساطير .

لقد عزف عازفون على نغمات شتى لتحريك هذه الأمة ، فما تحركت ولا استجابت .

عزفوا على نغمة القومية ، وعلى نغمة الاشتراكية ، وعلى نغمة الديمقراطية ، فما صنعوا شيئاً . غير النكسات والوكسات !

ولكن حين تقود هذه الأمة بالمصحف ترفعه ، أو حين تصدع بصيحة «الله أكبر» وحينما تنادي : ياريح الجنة هبي . ستجد الجماهير معك ووراءك بالملايين مستعدة للموت في سبيل الله .

هذا الإيمان المرصود في فطرة الأمة ، المذخور في كيانها المعنوي ، أشبه ببذرة طيبة في أرض طيبة ، يجب علينا أن نرعاها وننميها ونتعهدها ونغذيها من ناحية . . . وأن نحميها ونحافظ عليها من المواد السامة ، والحشرات الضارة ، حتى تنمو وتزهر وتثمر وتؤتي أكلها بإذن ربها .

ولهذا كنا في حاجة إلى تربية إيمانية سليمة ، تزرع في القلوب المعاني الربانية الأصيلة : الخشية من الله ، والرجاء فيه ، والأنس به ، والحب له ، والرضا عنه ، والتوكل عليه ، والأنابة إليه ، والطاعة لأمره ، والتسليم لحكمه ، وحكم رسوله . كما قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾(النساء : ٦٥) ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا واطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ . (النور : ٥١) .

ومن عناصر هذه التربية : استحضار معاني الآخرة وما يتعلق بها : الموت ، القبر ، البعث ، الحشر ، الموقف ، الحساب ، الصحف ، الميزان ، الصراط ، الجنة ، النار .

وبعبارة أخرى : نحن في حاجة إلى لون من الصوفية الربانية الإيجابية المعتدلة . التي عبر عنها بعضهمم بأنها : الصدق مع الحق ، والخلق مع الخلق ،

وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (النمل : ١٢٨) .

وهذا هو روح الدين الحق : التقوى لله ، والإحسان للناس . فالتصوف الحقيقي تقوى وأخلاق ، قبل كل شيء .

يقول ابن القيم : الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، زاد عليك في الدين ، وكذلك التقوى .

وينقل ابن القيم في «مدارج السالكين» عن بعض متقدمي الصوفية في تعريف التصوف قوله : التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف(٢٧) .

فهذا هو التصوف الذي نريد : تصوف التربية والأخلاق القرآنية والنبوية : التصوف الذي يغذي الإيمان ، ويرقق القلوب ، ويحرك الدوافع ، ويشحذ الإرادة ، ويهذب النفس ، ويقوم السلوك في ضوء الكتاب والسنة ، وهدى السلف الصالح ، فهو الذي نحرص عليه ، وندعو إليه . وهو الذي يقوم بمهمة (التزكية) التي أشار إليها القرآن في معالم الرسالة المحمدية ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم . . . . ﴾ (سورة الجمعة : ٢) . وهو (مقام الاحسان) الذي جاء في حديث جبريل المشهور ، وعرفه النبي ﷺ بقوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

أما إذا كان التصوف سلبية كالتي عبر عنها بعضهم بقوله : دع الخلق للخالق ، واترك الملك للمالك ! يريد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو مرفوض ، ومثل ذلك قولهم : أقام العباد فيما أراد ! فهو كلام حق يراد به باطل !

وإذا كان التصوف إلغاء لشخصية المريد أمام شيخه ، كما قالوا : من قال لشيخه : لم ؟ لم يفلح ! وقالوا : المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي

الغاسل ! فهو كذلك مرفوض .

وإذا كان التصوف تفرقة بين الحقيقة والشريعة . كالذين قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم ! فلسنا منه في شيء .

وإذا كان التصوف كهانة وتجارة بالدين لدى العوام ، الذين يقادون بالأساطير وتصنع لهم التمائم الاحجبة والتعاويذ ، فهو باطل نبرأ منه .

وبالجملة : إذا كان التصوف مباءة للخرافات في الفكر ، والشركيات في العقيدة ، والمبتدعات في العبادة ، والضعف في الأخلاق ، والسلبيات في السلوك ، والإهمال للحياة . فنحن أول من يحاربه .

فإنما يتجدد الدين حقا ، بالدعوة إلى (الإسلام الأول) : الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم وشرحته السنة المطهرة ، وفهمه الصحابة وتابعوهم باحسان ، قبل أن يخلط بشوائب الملل والنحل ، وفلسفات الأمم في الشرق والغرب . ندعو إليه خالصاً بلا شركة ، نقيا بلا شوائب ، شاملا بلا تجزئه ، متوازنا بلا غلو ولا تفريط ، صراطاً مستقيماً بلا ميل ولا انحراف إلى اليمين أو الشمال ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (سورة الأنعام : ١٥٣) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الحـــواشي

(١) رواه أبو داود في سننه ، برقم :(٤٢٧٠)والحاكم في (مستدركه) في الفتن (٤ : ٥٢٢) والبيهقي في (معرفـة السنن والآثار) (ص٥٢) والخطيب في (تـاريخ بغـداد) (٢ : ٦١) كما ذكر الألباني في سلسلة (الصحيحة) رقم (٥٩٩) وعـزاه أيضـا إلى أبي عمرو الداني في الفتن) . والهروي في (ذم الكلام) ، وفي تعليق الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي على «بذل المجهـود في حـل أبي داود» نقل عن مولانا عبد الحي : أن الحديث أخرجه أيضاً الحسن بن سفيان في مسنده والبزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية . . . وغيرهم .

(٢) قال في (بذل المجهود) جـ١٧/٢٠١ : أي أن المائة سنة قرن ، فيحدث فيه المحدثات فيبعث على رأسها المجدد .

(٣) مختصر السنن للمنذري جـ٦ / ١٦٣ط . المكتبة الأثرية بلاهور - باكستان مصورة عن طبعة السنة المحمدية بمصر - بتحقيق محمد حامد الفقي .

(٤) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير (ج٢ / ٢٨٢) .

(٥) ليس في المستدرك : أنه صححه ، وإنما سكت عليه . قال الالباني : فلعله سقط ذلـك من النسخة المطبوعة من المستدرك . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة . المجلد الثاني ص١٥١ - الحديث ٥٩٩ .

(٦) انظر المصدر السابق .

(٧) جاء في مسلم عن أنس (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض ، الله ، الله) حديث رقم ٢٣٤ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٨) رواه مسلم من حديث ابي هريرة برقم ٢٣٢ ، وورواه الترمذي من حديث ابن مسعود برقم ٢٦٣١ وقال : حسن صحيح غريب ، وهو عند ابن ماجه برقم ٣٩٨٦ ، ونسبه (الجامع الصغير) إلى ابن ماجه عن أنس ، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس ولم يخرجه البخاري وذكر الترمذي في (العلل) أنه سأل عنه البخاري فقال : حديث حسن (الفيض ٢ / ٣٢٢) .

(٩) رواه الترمذي الترمذي برقم ٢٦٣٢ من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف الحزني ، وهو ضعيف وإن كان الترمذي يحسن حديثه ، بل يصححه أحياناً وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً « طوبى ! طوبى للغرباء ! طوبى للغرباء ! فقيل : من الغرباء يارسول الله . قال : ناس صالحون في ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » (الحديث رقم ٧٠٧٢ وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح) .

(١٠) انظر : مدارج السالكين لابن القيم جـ٣/١٩٦ بتحقيق محمد حامد الفقي .

(١١) الحديث رواه البخاري في (كتاب الفتن) عن الزبير بن عدي ، قال : أتينا أنس بن مالك ، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج (يريد الحجاج بن يوسف الثقفي) فقال : « اصبروا ، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم . سمعته من نبيكم ﷺ الحديث برقم ٧٠٦٨ من البخاري مع (الفتح) جـ٣ ص١٩ ، ٢٠ - ط . دار الفكر ، بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز ، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، واشر ف على طبعه السيد محب الدين الخطيب .

(١٢) الفتح جـ١٣ ص٢١ قال : واستدل ابن حبان في صحيحه بأن حديث أنس ليس على عمومه بالأحاديث الواردة في المهدي ، وأنه يملأ الأرض

عدلاً ، بعد أن ملئت جورا . ا هـ .

(١٣) هو محمود بن زنكى (عماد الدين) الملقب بـ (الملك العادل) : ملك الشام وديار الجزيرة ومصر ، وهو أعدل ملوك زمانه واجلهم وأفضلهم وكانت سيرته في صلاحه وعدله وحرصه على إقامة حكم الله في الداخل ، وجهاد عدو الله في الخارج - اشبه بسيرة الخلفاء الراشدين . قاتل الصليبين وكان موفقاً في حروبه ، وبنى المدارس والجوامع ، والخانات في الطريق . وهو أول من بنى داراً للحديث . وكان محباً للعلم ، مكرما للعلماء ، ينهض للقائهم ولا يرد لهم قولا . . . عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة دون تعصب ، كما سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة ، وسمع منه جماعة ، ت٥٦٩هـ . انظر : الاعلام للزركلي جـ ٤٦/٨ وكتاب الروضتين لأبي شامة وابن الأثير جـ ١٥١/١١ والبداية والنهاية جـ١٢ ٢٧٧ - ٢٨٤ . طبع بيروت ، وللدكتور حسين مؤنس : نور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق . نشرته الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(١٤) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بـ (الملك الناصر) من أشهر ملوك الإسلام ، وأحرصهم على إصلاح البلاد ، والعدل بين العباد ، قاهر الصليبين الذي حرر الله على يديه (بيت المقدس) بعد بقائه في أيديهم أكثر من تسعين عاما ، ونصره عليهم في معركة (حطين) الشهيرة . ملك مصر والشام ، وأسس الدولة الأيوبية ، ولم يدخر لنفسه مالا ولا عقارا إلا ما بنى من مدارس ومستشفيات . ت٥٨٩هـ انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ /٣٧٦ وابن الأثير جـ١٢ /٣٧ والبداية والنهاية جـ١٣ /٢ وما بعدها وكذلك أواخر جـ١٢ ، وشذرات الذهب جـ٢ /٢٩٨ ، والأعلام للزركلي جـ٩ /٢٩١ - ٢٩٣ .

(١٥) وردت فيه جملة أحاديث في (السنن) ، ولم يرد في الصحيحين شيء صريح فيه .

(١٦) انظر : التصريح بما تواتر في نزول المسيح للعلامة أنور الكشميري تحقيق عبد الفتاح أبي غدة .

(١٧) رواه الترمذي عن أنس برقم ٢٨٧٣ وقال : حديث حسن غريب ، وعزاه السيوطي في (الجامع الصغير) إلى أحمد أيضاً عن أنس ، وإلى أحمد عن عمار بن ياسر ، وإلى أبي يعلي عن علي ، وإلى الطبراني عن عبد الله بن عمرو وقال ابن حجر في (الفتح) : هو حديث حسن ، له طرق قد يرتقى بها إلى الصحة . وقال المناوي : وصححه ابن حبان من حديث عمار (انظر فيض القدير جـ٥/٥٠٧) .

(١٨) عزاه في (الجامع الصغير) إلى أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبيه . وذكر المناوي في الفيض (جـ٣/٢٠١) أن الهيثمي قال عن سند أحمد : رجاله رجال الصحيح وإن الحاكم صححه ووافقه الذهبي في موضع ، ورده في آخر . وهذا صحيح ، ولكنه باعتبار إسنادين مختلفين ، فعلى ضوء الإسناد الذي ذكره الحاكم في المستدرك (٤/٣١١) أقره الذهبي على تصحيحه ، ولكنه تعقبه في (٤/٣١٨) . وانظر تعليقنا على الحديث رقم (١٥) من كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) . وذكره المنذري في (الترغيب) وذكر تصحيح الحاكم له وأقره . وذكره الالباني في صحيح الجامع .

(١٩) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١ ، ١٦٣٢) وذكره الالباني في الصحيحين برقم٣ .

(٢٠) رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس ، ورواه أحمد والشيخان أيضاً عن سهل بن سعد . وهو معروف كذلك عن جابر وبريدة وغيرهما . قال الحافظ السيوطي : وهذا متواتر (الفيض جـ٣/٢٠٢) وانظر اللؤلؤ المرجان فيما اتفق

عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي ط . عيسى الحلبي حديث رقم ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ .

(٢١) رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب المفرد والطيالسي وعبد بن حميد والبزار وغيرهم ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات أثبات . انظر فيض القدير : ٣/ ٣٠ ، ٣١ وذكره الألباني في الصحيحة رقم ٩ وفي صحيح الجامع الصغير أيضاً .

(٢٢) فيض القدير جـ ٢ ص٢٨٢ .

(٢٣) فيض القدير جـ١ ص١١ .

(٢٤) جامع الأصول لابن الأثير جـ١١ ص٣٢٠ - ٣٢٤ .

(٢٥) فيض القدير جـ١ ص١١ . وانظر فتح الباري جـ١٢/ ٢٩٥ ط . دار الفكر ببيروت . وشرح النووي على مسلم جـ٤/ ٥٨٣ ، ٥٨٤ . ط. الشعب بالقاهرة .

(٢٦) انظر : مقدمة العدد الأول من مجلة المركز .

(٢٧) ذكره ابن كثير في تفسيره عن قتادة بلاغا إلى النبي ﷺ ج٢/ ٢٦٩ ط . الحلبي .

(٢٨) رواه الترمذي من حديث ابن عباس برقم (٢١٦٧) وحديث ابن عمر برقم (٢١٦٨) واستغرب كليهما . لكن رواه الطبراني بسند رجاله ثقات ، كما قال الهيثمي ، وقال ابن حجر : له شواهد كثيرة منها موقوف صحيح . لذا رمز السيوطي لحسنه في جامعه الصغير . انظر : فيض القدير جـ٦/ ٤٥٩ ، وذكره الالباني في صحيح الجامع .

(٢٩) متفق عليه من حديث أبي موسى .

(٣٠) فيض القدير جـ١ ص١٠ .

(٣١) نفسه ص١٢ .

(٣٢) فيض القدير جـ١ / ١٠ .

(٣٣) جـ١ ص٤١١ من (السراج المنير) للعزيزي .

(٣٤) فيض القدير جـ٢ / ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٣٥) الفيض جـ١ ص١٠ .

(٣٦) متفق عليه من حديث معاوية .

(٣٧) مدارج السالكين جـ٢ / ٣٠٧ .